**المنطلقات النظرية للضبط الاجتماعي**

**تمهيد:**

**الضبط الاجتماعي ظاهرة اجتماعيةSocial Phenomenon شأنه شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى ذات الأوجه المتعددة والذي تتداخل في تكوينه عوامل متعددة، وهذا الموضوع لم يتخصص فيه علم الاجتماع فحسب ولا اتجاه معين فقط؛ بل توجد علومٌ كثيرة- كما أشرنا إلى ذلك- تشترك في تناوله مثل الانثربولوجيا والقانون والاقتصاد وعلم النفس الاجتماعي والسياسة وغيرها. وجميع هذه العلوم تركز في دراستها على تحقيق التوازن في المجتمع المدروس؛ لذا لا عجب أن نجد مجموعة من النظريات- كل واحدة تفسر وجهة نظر صاحبها وفكرته عن الضبط الاجتماعي- التي تفاعلت على ساحة هذا الحقل بحيوية فأعطت له فاعلية لم نجدها في مواضيع كثيرة أخرى.**

**أولاً: النظريات القديمة للضبط الاجتماعي:**

**1- نظرية الطبيعة المدنية للإنسان:**

**يتحدث الفارابي "257-339هـ" في القسم الثاني من كتابه "أهل المدينة الفاضلة" عن حقيقة الاجتماع الإنساني والدوافع الأساسية إلى قيامه، فيشير إلى أن الإنسان في حاجة لأخيه الإنسان في إشباع حاجاته الأساسية والاجتماعية والروحية.علماً أن إشباع هذه الحاجات يعتمد أساساً على توافر القوام المادي والكمال المعنوي في المجتمع الذي يتحدث عنه الفارابي، ولاشك أنه رجع في هذا الصدد إلى "أرسطو" Aristotle "384-322 ق.م" ينشد حكمته وينقل عنه قضيته الأساسية وهي أن الإنسان مدني بطبيعته. حيث يقول الفارابي "إن الإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته"، أي أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع الحصول عليها بمفرده فهو لا بد له من التعاون مع أبناء جنسه لكي يستطيع الوصول إلى الكمال، والكمال الذي يقصده هو السعادة "[[1]](#footnote-1)٭" وهي فكرة منقولة عن أرسطو أيضاً. ولا يتم للفرد تحقيق السعادة في نفسه عن طريق التعاون المادي فحسب بل لا بد له من التعاون الروحي أو الفكري لأن السعادة تتصل بتحقيق الأشياء المادية والروحية التي يسعى إليها الإنسان "وكل واحد من الناس مفطور على أنه يحتاج في قوامه أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه قوامه، وكل واحد من كل واحد بهذه الحالة...لهذا كثُرت أشخاص الناس فحصلوا في المعمورة من الأرض فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية."**

**وتعرّض الفارابي للسلطة من حيث نشأتها ووظيفتها في المجتمع، وعدَّها قانوناً ينهض في المجتمع ليمنع العدوان والظلم وليحقق العدل، ويضرب لذلك العديد من الأمثلة المستمدة من واقع الحياة الاجتماعية لاسيما ما يتعلق منها بعمليات البيع والشراء والأمانة في رد الودائع والكف عن الجور أو الظلم. كما بين الفارابي أهمية الخوف الناتج عن وجود السلطة ودوره في استمرار التزام الناس بالخصال الحميدة. علماً أن تلك السلطة تتجسد برئيس المدينة الفاضلة التي تُستمد منها جميع السلطات، بوصفه المثل الأعلى الذي ينتظم جميع الكمالات، فهو مصدر حياة مدينته وقوام نظامها. ومنزلته من سائر أفرادها كالقلب من أعضاء الجسم، بل إن منزلته منهم كمنزلة "الله" من العقول وسائر الموجودات. لذلك لا يصلح للرياسة إلاّ من زود بصفات فطرية ومكتسبة"[[2]](#footnote-2)\*" يتمثل فيها أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في الجسم والعقل والخلق والدين. وأشار إلى أهم عوامل فساد المجتمعات المتمثل في بعدها عن أسباب الفضيلة وعدم قدرتها على تحقيق السعادة بالمفهوم الذي قصد إليه الفارابي، علاوة على عدم توافر الرئيس القادر على القيادة والريادة، فضلاَ عن غياب رابطة القهر والقوة التي تمثلها السلطة.وعلى الرغم من كل ما قيل عن الفارابي ونهجه المثالي فإنه بغير شك سعى لأن يعود بالمجتمع الإسلامي إلى سابق مجده صفاءً وفضيلةً وسعادةً من خلال ما أرساه من قواعد المدينة الفاضلة، أو هو دق ناقوس الخطر حتى يتنبه ولي الأمر ويتخذ أولى خطوات الإصلاح والضبط.**

**كذلك يقول "أفلاطون" Plato "427-347" في كتابه "الجمهورية" The Republic أن الاجتماع البشري ظاهرة طبيعية في حياة الناس، فهو وليد شعور الفرد بالحاجة إلى الآخرين لتأمين ما يحتاج إليه من غذاء وكساء ومسكن. فالمجتمع قائم على التكافل والتضامن بين الأفراد، لا على الخوف والقهر. والتعاون قديم قدم الإنسان، وهو الذي أدى إلى قيام التجارة الخارجية والتبادل التجاري والتوسع فيه، واستعمال العقود، وأعقب ذلك الحاجة إلى الكماليات والانغماس في الترف وإستجادة الصنائع لتلبية رغبات الحضارة. فأشتد التنافس بين الناس وثارت الأحقاد ونشأت المنازعات واشتعلت الفتن. لقد اختل النظام وضاعت المبادئ وفسدت مقاييس العدالة. وما "جمهورية أفلاطون" سوى محاولة ترمي إلى إقرار النظام وبعث العدالة الصحيحة في مدينة مثالية فاضلة تكون فيها مقاليد الحكم بأيدي الفلاسفة.ويمكن تلخيص منهج "أفلاطون" في بناء جمهوريته على النحو الآتي:**

**1-إن الإنسان يتكون من عنصرين رئيسين مادي يتمثل في الجسم وإلهي يتمثل بالنفس.**

**2- النفس خالدة لذا هي أهم من الجسم عند "أفلاطون". من هنا يقسّمها إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: العقل ومركزه الرأس والروح ومركزها الصدر والشهوة ومركزها البطن، والعقل هو أهم أجزاء النفس الإنسانية لأنه أكثرها اتصالاً بعالم المثل وهو الذي يقود ويوجه النفس إلى الخير ويرى الصدق والحقيقة بوضوح. أمّا الروح فهي مطيعة لأوامر العقل. في حين أن الجزء الثالث الشهوة جامح وثائر ومضطرب. وتكون النفس خيّرة وصالحة في رأي "أفلاطون" إذا استطاع العقل السيطرة على الروح والشهوة. والعكس إذا سيطر أحد الجزأين الآخرين من النفس الروح والشهوة فإنه لا يمكن التوصل إلى الخير ويقاس سلوك الناس وانضباطهم وفقاً لسيطرة أحد هذه الأجزاء المكونة للنفس الإنسانية.**

**3- ولكي يحدث التوازن بين أجزاء النفس الإنسانية الثلاثة لابد من تدريب الأفراد وإلزامهم، والدولة هي التي تقوم بهذا الدور من خلال قادتها، وقادة الدولة الأفضل والأقدر لهذه المهمة هم الفلاسفة لأنهم صفوة المجتمع، وبالتالي هم الذين يجب أن توكل لهم شؤون الحكم.**

**4- التربية هي العامل الأساس في تكوين الحكم، ويضع "أفلاطون" في ذلك منهجاً يرى فيه أن: يصنف الصغار إناثاً وذكوراً على حدٍ سواء إلى مجموعات ثم تمييز أصحاب القوة الجسدية منهم وتعهدهم برعاية خاصة للمحافظة على قوتهم الجسمية مع تزويدهم بقسط من الفنون والآداب، مع العمل على أن تغرس في نفوس الأطفال الصغار مجموعة من الفضائل من خلال توجيه النصح لهم وإرشادهم كلما دعت الضرورة لذلك. وبعد بلوغ الصغار سن الثامنة عشرة، ينقطعون عن الدرس ويتجهون إلى مزاولة تمرينات عسكرية لمدة عامين، بعدها تتاح للمتميزين منهم فرصة العودة إلى الدرس لكن في مواد أخرى مثل الفلك والحساب والهندسة والموسيقى، وعند سن الثلاثين يصطفى أصحاب الاستعداد الفلسفي ليتفرغوا لتعلم فنون الفلسفة والبحث في حقائق الأمور، ويبقون على هذه الحالة حتى سن الخامسة والثلاثين، وبعدها ينزلون إلى معترك الحياة العامة ليزاولوا مختلف الوظائف الإدارية والحربية, وهؤلاء يوضعون تحت المراقبة حتى سن الخمسين والمتميزون منهم يرقون إلى مصاف الحكام ويعهد إليهم بمقاليد الحكم. أمّا عن مصير من تخلفوا ولم تمكنهم قدراتهم من مواصلة مختلف مراحل الدراسة المشار إليها قبلاً فهم في رأي" أفلاطون" لا يصلحون إلاّ لأن يكونوا جنوداً.**

**ويلاحظ أن "أفلاطون" يقيم تقسيمه للطبقات في المجتمع طبقاً لتقسيمه لأجزاء النفس الإنسانية فالحكام يمثلون العقل فهم عقل ذلك المجتمع الذين يمتلكون قدراً عالياً من المعرفة والثقافة، والجند يمثلون الشجاعة فهم القلب الساهر على حماية مصالح الجمهورية ورعايتها والعمال والزرّاع والتجّار يمثلون الجزء الشهوي لأنهم بمثابة الشهوة التي تنازعتها رغبات وأهواء مختلفة.**

**وأكد ابن خلدون "1332-1406" أن الإنسان سياسي بطبعه وهو في حاجة لتحقيق قوام وجوده من مأكل ومشرب في مجتمع.بمعنى أنه لا يستطيع العيش إلاّ في مجتمع ولا يبلغ كمال ذاته إلاّ في جماعة، وهنا تظهر الضرورة الاجتماعية التي تنعكس في حاجة الأفراد إلى التعاون لسد الحاجات الاقتصادية والمعنوية والدفاعية التي تتجلى من خلال الصراع والمنافسة مع أخيه الإنسان من جهة ومع قوى الطبيعة من جهة أخرى، ومتى ما تحققت الضرورة الاجتماعية عند الناس وأصبح هؤلاء قادرين على الاستمرار والبقاء تظهر السلطة في المجتمع لتنظيم علاقاتهم تنظيماً يكفل استقرار المجتمع ونموه. ويمكن إجمال أسباب اجتماعية الإنسان عند ابن خلدون فيما يلي:**

**أ- إن الإنسان خُلق ورُكِب على صورة لا يصح حياتها ولا بقاؤها إلاّ بالغذاء، فإن حياة الفرد لاتقتصر على تحصيل حاجته من الغذاء فقط، ويضرب ابن خلدون مثلاً بأنه لو تناول الإنسان حباً خالصاً فإنه يحتاج في تحصيله إلى العمل بالزراعة والحصاد والدرس، وفي كل هذه الأعمال يحتاج إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة، فلا بد من الاجتماع بعدد كبير من أبناء جنسه ليحصل القدرة له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.**

**ب- يحتاج الإنسان إلى الدفاع عن نفسه لذلك يستلزم الاستعانة بأبناء جنسه، فالفرد عاجز عن الدفاع عن نفسه ضد عدوانية الحيوانات المزودة بالمخالب ووسائل الدفاع الطبيعية، لهذا عوضه عن ذلك بالفكر واليد، فالاجتماع ضروري للنوع الإنساني وألاّ لم يكتمل وجودهمْ وما أراده الله من اعتمار العالم به واستخدامه إياهمْ.**

**ت- إن الاجتماع إذا حصل للبشر وتمّ عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم، ويكون الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد الظاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك.**

**ومن نافلة القول، أن ابن خلدون لم يكن يدعو بدعوة الأرسوطاليين الذين ساروا على مقولة "الإنسان مدني بالطبع"، بل فهو يرى أنّ "الإنسان وحشي بالطبع مدني بالتطبع"،فهو مهما تظاهر باللطف والمجاملة وتباهى بترديد الأفكار السامية والمثل العليا يبقى حيواناً مفترساً في أعماق نفسه، وما هذه المظاهر التي انخدع بها المفكرون القدماء إلاّ غطاء يستر بها الإنسان طبيعته الأصلية. وبذلك يمكن القول إن المفكر العربي ابن خلدون انفرد عن علماء وفلاسفة عصره عندما نظر إلى الواقع الاجتماعيSocial Reality بوصفه واقعاً محتوماً لا مفر منه حيث يرى أن التنازع عنصر أساس من عناصر الطبيعة البشرية، فكل إنسان يحب الرئاسةHeadship وهو لا يتردد عن التنازع والتنافس في سبيلها إذا وجد في نفسه القدرة على ذلك. وهذا الرأي أصبح الآن محوراً لكثير من النظريات التي جاء بها علماء الاجتماع، وفي علم الاجتماع الحديث مدرسة قائمة بذاتها تأخذ تعاليمها من نظرية هذا المفكر الكبير.**

**وأشار المفكر الاسكتلندي "ديفيد هيوم"D.Hume "1711-1776" إلى أن الأنساق الاجتماعية أنساق طبيعية وأنها تتطور، وأن هناك قوانين للتطور فهو يقول: "عندما نتأمل في كون الناس جميعاً متساويين تقريباً في القوة البدنية بل وفي قدراتهم العقلية واستعداداتهم حين تنمى عن طريق التربية لابد بالضرورة أن نعترف بأنه ما من شيء سوى رضائهم كما يمكن أن يجمعهم في أول الأمر في اتحاد ويخضعهم لأية سلطة، فإذا تتبعنا عملية الحكم إلى أصولها الأولى في الغابات والصحراوات وجدنا الناس هم مصدر كل سلطة واختصاص، وأنهم تنازلوا طواعية عن حريتهم المتأصلة وتلقوا القوانين من أندادهم وزملائهم من أجل النظام والسلام".**

1. "٭ " السعادة عند الفارابي تعني سعادة العقل وفعل الخير والقرب من الله سبحانه وتعالى من خلال إتباع أوامره واجتناب معاصيه. [↑](#footnote-ref-1)
2. "\*" يجب أن تتوفر اثنتا عشرة صفة فطرية في رئيس المدينة وستة صفات مكتسبة متعلقة بالأخلاق. والصفات الفطرية هي:-1- أن يكون تام الأعضاء، قواها مواتية أعضائها على الأعمال التي شأنها بها، ومتى همّ عضو من أعضائه بعمل يكون به أتى عليه بسهولة.2- أن كون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له ويتلقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلى حسب الأمر في نفسه.3- أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه في الجملة فلا يكاد ينساه.4- أن يكون جيد الفطنة ذكياً إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها الدليل.5- أن يكون حسن العبارة يواتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة.6- أن يكون محباً للعلم والاستفادة منقاداً له سهل القبول لا يؤلمه تعب العلم ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه.7- أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنباً بالطبع اللعب مبغضاً للذات الكائنة عن هذه الأمور.8- أن يكون محبّاً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله.9- أن يكون كبير النفس محباً للكرامة، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور وتسمو بالطبع إلى الأرفع منها.10- أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينّة عنده.11- أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله ومبغضاً للجور والظلم وأهلهما يعطي النصَّف من أهله ومن غيره ويحث عليه ويؤتى من حلّ به جور مواتياً لكل ما يراه حسناً جميلاً ويكون عدلاً غير صعب القياد ولا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعا إلى العدل بل صعب القياد إذا دعى إلى الجور وإلى القبيح.12- أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يُفعل، جسوراً عليه، مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس.

   أمّا الصفات المكتسبة فهي:- 1- أن يكون حكيماً.2- أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسير التي دبرها الأولون للمدينة محتذياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها.3-أن يكون له جودة استنباط فيما لا يُحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيما يستنبطه في ذلك محتذياً حذو الأئمة الأولين.4- أن يكون له جودة رؤية وقوة استنباط لما سبيله أن يعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون، ويكون متحريا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة.5- أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين وإلى التي استنبطت بعدهم مما احتُذى فيه حذوهم.6- أن يكون له جودة ثبات ببدنه مباشرة أعمال الحرب؛ وذلك أن تكون معه الصناعات الحربية الخادمة والرئيسة. (علي عبد الواحد وافي، المدينة الفاضلة للفارابي، مرجع مستخدم، ص ص28-29.) [↑](#footnote-ref-2)